تقديم

صلتى بالبحث :

لم تكن صلتى بأبى العلاء وليدة هذا البحث، ولكنها بدأت منذ أمد طويل، فمنذ حداثتى أخذت أتجول بين صفحات بعض ماكتب وما كُتب عنه. فشغفت بشخصيته وأحببت أدبه وفكره. استمر ولعى بأدب الرجل حتى التحقت بالدراسات العليا، فعقدت العزم على أن أساهم بجهدى المتواضع فى التعريف بلغته ومحاولة كشف أسرار أسلوبه.

لا ريب أن ظروف المعرى الشخصية، وأوضاع القرنين الرابع والخامس الهجريين السياسية والمجتمعية والفكرية، قد أثرت كلها فى تكوين شخصيته تأثيراً كبيراً انبثق عنه رد فعل قوى فى نثره وشعره. فكان لذلك صدى تردده الأقلام والألسنة، قديماً وحديثاً. لقد أطال القدماء الحديث عن ذكائه ومقدرته اللغوية وقوة حافظته[1]، ويكفى أن نلقى نظرة على كتاب **تعريف القدماء بأبى العلاء** لنرى ذلك الاهتمام الذى حظى به منذ القديم، والذى لا تزال مظاهره بارزة إلى اليوم، فلا غرابة أن يقام فى دمشق سنة ١٩٤٤ مهرجان للاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة المعرى[2]، كما لا غرابة أن تعد بالمئات الكتب والمقالات الصادرة عنه خلال القرن العشرين، وأن يهتم به الباحثون - عرباً ومستشرقين - فمن أجدر بذلك منه وهو الذى جمع برغم حرمانه من البصر، بين قوة الإبداع فى الفن والتضلع فى اللغة. وقلما اجتمعا لكاتب من الكِتّاب؟

لقد تناولت آثاره أقلام المحدثين محققة تارة ومحللة جوانب شخصيته تارة أخرى، فجاءت مؤلفاتهم متنوعة المشارب والمذاهب، فكل واحد يجد فيها جانباً

(١) انظر مثلا ما يرويه الثعالبى عن ذكائه : يتيمة الدهر، القاهرة ١٩٤٣م.

(٢) بهذه المناسبة نشر يوسف أسعد داغر كتاباً تحت عنوان، ٣٥٠ مصدراً فى دراسة أبى العلاء ط. بيروت، دار صادر ١٩٤٤.

على مستوى ثقافته وقدراته الإدراكية وعمق تجاربه؛ هكذا بوأه بعضهم مكاناً مرموقاً بين فلاسفة النظرة التشاؤمية، وحشره آخرون فى زمرة الملاحدة، وتصدى غيرهم لرد الشبهات عنه، وجعله بعض النقاد الموحى لدانتى بالكوميديا الإلـهية.

لقد تكاثرت الأقوال وتضاربت الآراء حول أبى العلاء كما تتضارب دائماً حول من تميزوا بنوع من النبوغ، فهذا طه حسين يقسو عليه تارة ويرأف به أخرى، وتجعل منه بنت الشاطئ، وسليم الجندى المسلم الزاهد، ويميل أمجد الطرابلسى ليحبب إلى طلبته الاهتمام بأبى العلاء كمعلم لغوى بارع، ويتعرض عمر فروخ إلى دراسة الجانب الفلسفى عنده وإلى تحليل منهجه الأخلاقى ومواقفه من قضايا المجتمع، ويتقمص تيمور دور المدافع عن دين أبى العلاء وصدق إيمانه. ثم يأتى لويس عوض ليرميه بالزندقة والإلحاد، ويجرد «غفرانه» من كل جدة وطرافة، فيتصدى له محمود محمد شاكر ليخطئ أقواله، ويسفه آراءه دفاعاً عن أبى العلاء وعن العروبة والإسلام.

ومبلغ علمى وبحثى أن أحداً من هؤلاء وغيرهم ممن اهتموا بآثار أبى العلاء لم يتناول تحليل لغته، أى وسائله التعبيرية، ولكن انصبت جهودهم على الجانب الفنى والأدبى، وعلى الآراء والمعتقدات.

لقد جذبنى عنوان كتاب أستاذى أمجد الطرابلسى «النقد واللغة فى رسالة الغفران»، ظناً منى أن المؤلف الكريم عالج لغة رسالة الغفران ودرسها دراسة وصفية، فانكببت على قراءته بإمعان، فإذا المراد «باللغة» آراء المعرى اللغوية التى تضمنتها الرسالة وليست لغة المعرى بالذات.

لكل ذلك، ولأن أبا العلاء لا كغيره من الكتّاب، مكفوف البصر، يملى ولا يكتب، ولكون لغته تمثل شكلاً خاصًا فى اللسان العربى، حيث هى لغة أعمى لم يباشر الكتابة، جاء هذا البحث، ليدرس **لغة أبى العلاء فى «رسالة الغفران»**.

ومرد اختيارى للرسالة بالذات يرجع إلى أنها تجمع بين الطرافة فى الموضوع والهيكل، وبين تنوع الأساليب وطرق التعبير عن مضامين شتى، وأنها بحق تعكس شخصيةأبى العلاء الأعمى لغة وفكراً.

الصعوبات :

لا يخفى مايعترض الدارس للغة نص ما من صعوبات وعقبات فى اختيار منهج قويم، كفيل بأن يوفى الموضوع حقه، لقد حظيت المكتبات العربية بالكثير من المصنفات فى مناهج البحث فى اللغة، غير أنى لم أحظ بالعثور على دراسة تطبيقية نموذجية تنير السبيل لمن يود القيام بدراسة لغوية لنص مكتوب. فكان الأمر بالنسبة لنص عملى مكتوب يتميز بصعوبات أكبر!

صعوبة أخرى واجهتها، ولعلها وليدة السابقة، تتمثل فى أن مفهوم تحليل النص ودراسته دراسةً لغوية لم تكن واضحة فى ذهنى، إذ لم يكن لدى من المعلومات ومن التجارب ما يمكننى من تناول الموضوع بسهولة ووضوح. كما لم يقدر لى أن أعمل فى السنوات الأولى من حياة هذا البحث تحت إشراف يساعدنى على تخطى أمثال تلك الصعوبات. لقد انكببت على قراءة ما استطعت الحصول عليه من كتب مناهج البحث فى اللغة، مستعينة بما جاء عند بعض اللغويين الأوربيين، وحاولت جهد المستطاع أن أستفيد من هؤلاء وأولئك، فبدا لى أن الأمر يقتضى دراسة مراتب (مستويات) لغة النص دراسة تعتمد على معطيات المعاجم وكتب قواعد اللغة والنحو، أى محاولة إثبات المعادلات والمناسبات التى توجد بين التراكيب والمقصود من استعمالها، ومدى نجاح الكاتب فى اختيار ما يلائم منها للتأثير فيالنفس وإيصال ما يود تبليغه.

صعوبة ثالثة، صادفتها حين عزمت على دراسة الألفاظ الدخيلة التى وردت فى لغة رسالة الغفران، ذلك أن المكتبات العربية لا تتوفر فيها معاجم تأصيلية تعنى بدراسة تطور الألفاظ، وبيان أصولها، وما يعتريها من جراء تداخل اللغات، والتحول الزمانى والجغرافى.. وأملى كبير فى أن يعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة على إخراج بقية منجزات «فيشر» المستشرق الألمانى عن المعجم اللغوى والتاريخى، عسى أن يغطى بعض هذا النقص.[1]

(١) صدر عن المجمع القسم الأول لمعجم فيشر، ويضم من أول حرف الهمزة إلى مادة «أبد».

تلك بعض الصعوبات التى اعترضتنى فى بداية دراستى للغة الغفران، وقد حاولت التغلب عليها فى سنوات البحث الأولى بالرجوع إلى شتى المصادر، وبالتنقل بين آراء عدد من الأساتذة شرقاً وغرباً.

مصادر البحث :

اعتمدت هذه الدراسة على نص «رسالة الغفران» الذى قامت بتحقيقه الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) وهو نص تتجلى فيه الجهود القيمة التى بذلتها المحققة للمزيد من الضبط والتحرى.

وكانت مصادرى الأساسية فى مجال الدراسات النحوية واللغوية : **الكتاب** لسيبوية، **وألفية** ابن مالك، **ومغنى اللبيب** لابن هشام، ومن المعاجم : **الجمهرة** لابن دريد، **والقاموس المحيط** للفيروزبادى، **ولسان العرب** لابن منظور، وفى دراسة الدخيل رجعت إلى **المعرب** للجواليقى **وشفاء الغليل** للخفاجى، كما استعنت بمؤلفات بعض المحدثين فى هذا المجال مثل **كتاب الألفاظ الفارسية المعربة** لأدى شير، **وغرائب اللغة العربية** للأب نخلة اليسوعى، وكذا بعض القواميس المزدوجة **اللغة** مثل قاموس بلاشير.

منهج البحث :

«رسالة الغفران» ملْتَقى لمعارفَ شَتَّى، وصدى لتيارات فكرية ومناقشات لغوية وأدبية، الشىء الذى جعلها تختص بتعابير وألفاظ متميزة. وقد أثار انتباهى بصورة خاصة، ما بالجمل والتراكيب العلائية من امتداد داخلى لعله وليد ما كان ينساق إليه المؤلف من استطرادات يسلم بعضها إلى بعض، أحياناً بعفوية، وأخرى عن قصد وسابقْ إصرار. لذا حاولت أن أركز جل اهتمامى على هذه الظاهرة، فقمت بدراسة التراكيب والجمل وتقصيت ميزاتها وخصائصها. وبما أن تلك التراكيب قوالب لمضامين مختلفة رأيت من واجبى أن أمهد بدراسة لمضمون **رسالة الغفران** والمنهج الذى احتواه، قبل أن أتناول دراسة التراكيب فى مختلف صورها.

وأثار انتباهى أيضاً، ما بالرسالة من كلمات دخيلة وشروح لغوية لكثير من الكلمات.

هكذا فرضت طبيعة الغفران شكلاً ومضموناً، وطبيعة الدراسة اللغوية الوصفية، أن يأتى هذا البحث فى مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة.

يتحدث المدخل، بإيجاز، عن أهم الأحداث التى أثرت فى حياة أبى العلاء.

يتناول الباب الأول دراسات تمهيدية جاءت فى فصلين:

الفصل الأول: المضمون فى رسالة الغفران.

الفصل الثانى: المنهج فى رسالة الغفران.

ويدرس الباب الثانى الخواص التركيبية للجمل فى رسالة الغفران. وبما أن أكبر ظاهرة لغوية تميز لغة الغفران تتعلق بنوعية التراكيب، استغرق هذا الباب خمسة فصول جاءت كما يلى:

الفصل الأول: مدخل إلى دراسة الجملة فى رسالة الغفران (ما الجملة؟).

الفصل الثانى: أشكال الجمل العلائية وخصائصها.

الفصل الثالث: الجمل الفعلية والجمل الاسمية.

الفصل الرابع: النعت فى رسالة الغفران.

الفصل الخامس: الجمل الدعائية.

أما الباب الثالث فيتناول بعض قضايا المفردات، وينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الدخيل.

الفصل الثانى: طريقة شرح أبى العلاء للكلمات.

الفصل الثالث: نموذج من أدوات الربط التركيبية (أدوات الشرط).

وإن المنهج الوصفى الذى سار عليه البحث جعله يصطنع التطبيق والاستشهاد والإحصاء فى جميع مراحل الدراسة. أحصيت - مثلا - أشكال الجمل العلائية فى شتى النماذج، وعدد النعوت الواقعة جملة أو مفرداً، وكذا عدد الجمل الدعائية. وفى مجال المفردات أحصيت عدد الكلمات الدخيلة، والكلمات التى تعرض

أبو العلاء لشرحها، وبعض أدوات الشرط هادفة بذلك إلى تلافى إلقاء الأحكام، وتقرير الخصائص دون ضبط ودقة. هكذا حاولت، ما أمكن، أن أعزز بنتائج الإحصاء، بعض الظواهر اللغوية التى تميز لغة الغفران والتى استخلصها البحث أثناء الدراسة.

وإنى لأرجو أن تكون هذه الجهود المتواضعة قد أسهمت فى محاولة التعريف بلغة أبى العلاء، وإنها قطرة من بحر مما يجب أن تحظى به لغة مكفوفى البصر من اهتمام الدارسين اللغويين. كما أتمنى أن تنال قبولا، على مابها من عثرات. وأسأل الله التوفيق.